

في تاريخ الامة العربية ظاهرة كبيرة شديدة الوضوح. تلك هي ارتباطها برباط ثقافي وثيق منذ اقدم العصور المؤرخه لهذه الثقافة . لقد كان فكر هذه الامة كما تصوره لغتها يمتد امتدادا حزا طليقا الى كل البلدان التي تتكلم بهذه اللغة ، على اختلاف مراكز المد والاشعاع تبعا لاختلاف مراكز السيادة السياسية .

فلو نظرنا في تاريخ الجزيرة الفكرية قبل الاسلام - وهي اقدم بيئة من بيئات الثقافة العربية - لالفينا الشعراء يتنقلون بين مختلف مناطق الجزيرة حاملين شعرهم ليعرضوه على القبائل ، ولراينا تفاعلا فكريا ولغويا قويا يحدث في خفية وبطء ، حتى تخلص للشعر لغته الخاصة التي صفت من لهجات القبائل واصبحت وسيلة التعبير المقبولة المفهومة في دوائر الجزيرة الادبية . ونرى من ناحية اخرى ان الشعراء يفدون من الجزيرة على بلاطات الملوك من المناذرة والغساسنة ليلقوا شعرهم بين ايدي هؤلاء الملوك العرب الذين كانوا يطربون للشعر الجيد ويقربون اصحابه ويجيزونهم . وكل من يقرأ شعر النابغة والاعشى وطرفة والمتلمس وحسان وليبيد ، تقع عينه على صورة واضحة لهذه الصلات التي كانت تجعل من الجزيرة العربية وحدة ثقافية ولغوية وحضارية .

## الصلوات الثقافية بين مصر ولبان في النخبة الحديثة

بقلم الدكتور محمد يوسف نجم

وبعد ظهور الاسلام اتسع نطاق تلك الصلات ، واستمر في الاتساع على الزمن ولم يعد المظهر قاصرا على رحلة الشعر بل شمل ايضا الصلات السياسية والتجارية والعلمية . فقد اصبحت البلاد التي تتكلم لغة الضاد تمثل منطقة سيادة مشتركة في كثير من الحقب ، وكان الفرد ينتقل من اقصى الغرب الى اقصى الشرق دون ان تعترض سبيله حواجز او عوائق . واصبحت « الرحلة » في طلب العلم ولقاء العلماء قاعدة علمية اساسية ، اي ان المسجد او المدرسة كانا البداية المحلية لحياة المثقف ، ثم كانت منزلته العلمية تتوقف على لقاء مشاهير الشيوخ في كل قطر ، على تنوع اختصاصهم وقل ان نعثر في كتب الطبقات والمذاهب على عالم قر في بلده واكتفى بمساجدها وعلمائها ، ولم يجد في اثر علماء التفسير والحديث والمذاهب ، مهما تناءت الاقطار وشطت الديار . وهذه ظاهرة مألوفة اوضح من ان تضرب لها الامثلة ويؤتى لها بالشواهد .

وكان الازهر والكلية النظامية ببغداد ونيسابور والمدرسة المستنصرية وجامع قرطبة وغيرها تمثل المراكز الجامعية في تلك العصور ابتداء من القرن الرابع . واذا

# الأداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب : ٤١٢٣ بيروت - تلفون : ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle

Beyrouth - Liban

B.P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ورئيسها المسؤول

الدكتور سهيل إدريس

Propriétaire - Directeur  
SOUHEIL IDRIS

سكرتيرة التحرير

عايدة مطر عجمي إدريس

Secrétaire de rédaction  
AIDA M. IDRIS

### الإدارة

شارع سوريا - رأس الخندق العميق - بناية مروة

### الاشتراكات

في لبنان : ١٢ ليرة ■ في سوريا ١٥ ليرة  
في الخارج : جنيهان استرلينيان أو ستة دولارات  
في أميركا : ١٠ دولارات ■ في الأرجنتين ١٥٠ ريالا  
الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ليرة لبنانية أو ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما  
حوالة مصرفية أو بريدية

### الإعلانات

يتفق بشأنها مع الإدارة

ان كانوا قد غادروه سنة ١٧٧٣ حين حل البابا جمعيتهم .  
 ولم يكن اليسوعيون اقل نشاطا من الانجيليين في تأسيس  
 المدارس ، بل انهم فاقوهم في تأسيس مدارس الذكور .  
 وكذلك عني اليسوعيون بنشر كتب التراث العربي وتوافروا  
 على دراستها . كما اسسوا جامعة القديس يوسف سنة  
 ١٨٧٥ .

هذه المدارس التي انتأها البعثات الدينية ، الى جانب  
 المدارس الوطنية الابتدائية والعالية التي انشئت قبل ذلك  
 وبعده ، هي التي حملت شمع اليقظة في لبنان ، ونشر  
 تعليم اللغات الاجنبية ، وجعلت للبنان مكانه حضارية مرموقة  
 في المنطقة العربية منذ النصف الثاني من القرن الماضي .

وهكذا رفع للفكر في العالم العربي مناربان عاليتان .  
 احدهما على ضفاف النيل والثانية على شواطئ المتوسط .  
 ومنذ ذلك الحين غدت هاتان البيتان المجرى العام او النهز  
 العظيم الذي تفرعت منه الجداول وانحدرت الاوشال لتصب  
 في البيئات الفكرية الاخرى في العالم العربي ، كل بحسب  
 حظها من الثقافة ونصيبها من التطور . وقد التقت هاتان  
 البيتان العظيمتان منذ اوائل القرن الماضي في تعاون ثقافي  
 وتيق العرى ، تعمقت جذوره وتنوعت مظاهره فيما بعد ،  
 مفتح فكرا العربي الحديث صورته التي تمثل امامنا اليوم .  
 وكانت البيئات الاخرى دوما تعشو ببصرها الى هاتين  
 المنارتين اللتين غمر بورهما العالم العربي بمختلف اقطاره .  
 فلا عجب اذن حين نرى الاقلام العربية تهجر الى مصر او  
 الى لبنان ، وقد تذهب مشرعه في ايدي حملتها فنراهم  
 يرتادون ارض الكنانة وينهلون من ماء النيل هنيئا مريئا ،  
 او يشوقهم سموخ لبنان ، فيتفتنون ظل ارزه السوارف  
 الطويل . ولذا فان كل تاريخ نهضتنا الفكرية الحديثة لا بد  
 من ان يبدأ بهذين القطرين العظيمين ، وينتهي اليهما ، فقد  
 جمعا في نهضتهما المتعاونة خلال قرن ونصف من الزمن ،  
 جميع مظاهر اسهامنا الجدي في الفكر والحياة .

وهذا ما اغراني بدراسة تاريخ هذا التعاون الفكري  
 بين البلدين ، وهو تاريخ زاهر مجيد ، تنطق كل صفحة من  
 صفحاته باجمل معاني الود والسمو والاخاء .

- ٣ -

بدأت هجرة اللبنانيين الى مصر قبل بقطة القرن  
 التاسع عشر بقرنين على الاقل . فنرى علي بك الكبير حين  
 تولى الحكم سنة ١٧٧٣ يشجعهم على القدوم الى مصر  
 ويهييء لهم فيها مكانا وطيبا وعيشا رغيدا فيبلغ عددهم في  
 القاهرة وحدها في اواخر عهده زهاء ثلاثة الاف . الا ان  
 نشاطهم آنذاك اقتصر على الوظائف الحكومية والاعمال  
 التجارية . ولعل اول دور ثقافي برزوا فيه ، كان اعلان  
 الحملة الفرنسية على مصر . اذ اصطنع الفرنسيون عددا  
 منهم ليساعدوهم في الترجمة والطباعة وتنظيم الديوان .  
 وحين رحل الفرنسيون عن مصر اخذوا معهم عددا منهم ،  
 وبقيت كثرتهم في مصر . لتسهم في الطور الثقافي الثاني  
 من حياتها الحديثة ، وهو عهد محمد علي .

غلب محمد علي الاعتبارات الثقافية والحضارية على  
 كل ما سواها ، ولذا استعان في نهضته بعدد من الاجانب ،  
 من فرنسيين وايطاليين ، وكان من الطبيعي ، ان يفيد اعظم  
 افادة من جهود اللبنانيين الذين يتقنون لغة البلاد ، فهي  
 لغتهم ، والذين لا تفصل بينهم وبين ابناء الشعب تلك  
 الحواجز التي كانت تقف حائلا بين الاجانب وبين ما اصطنعوا  
 له من خدمة البلاد . فاللبناني العربي ، بحكم تاريخه وترثاته

اتخذنا الازهر مثلا على هذه المدارس ، وجدناه قد افتتح  
 صفحه جديدة من تاريخ العلوم العربية ، مضى عليها اكثر  
 من الف عام وما تزال ناصعه مشرعه . ومنذ ذلك الحين  
 احدث كتب الرجال تنلون باون جديد ، فدان يضاف الى نفايا  
 العالم كفايه جديده هي طلبة العلم في هذه الجامعة التي  
 كانت تتطور متتارة بما يحيط بها من احداث السياسة وتقلب  
 المذاهب . وتظل بعد هذا كله حمي وملادا للغة العرب  
 وثرانهم تصد عنهما غارات الدخلاء الواعلين الذين كانوا  
 يحاولون القضاء على الثقافة العربية ، باعتباره اقوى وسيله  
 للقضاء على كيان العرب السياسي .

وظل هذا الخط المشرف واضحا متصلحا حتى يومنا  
 هذا . وبحسبنا ان نذكر عالين فقط من العلماء الذين طهروا  
 فيه قبيل بقطة القرن التاسع عشر لنذكر خطر الدور العلمي  
 الذي نان ينهض به لجل هذه الاعوام الالف ، هذان العالمان  
 هما الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، مؤلف « عجائب الآثار »  
 والشيخ حسن العطار مثال العالم المحافظ المجدد في اواخر  
 القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر .

- ٢ -

وفي بداية القرن الماضي اخذت الحياة العربية تتجدد  
 لاعادة هذه الصلات التي وهنت في الحقب التي تمكن فيها  
 الاجنبي من رقاب العرب . يجدها في مصر محمد علي ،  
 فينشيء المدارس الحديثة ، على مختلف مستوياتها .  
 كالمدرسة التجيزية العربية ومدرسة اركان الحرب  
 والمدارس الطبية ومدارس الزراعة والهندسة ، وما يتبع  
 هذه المدارس العالمة من المكاتب الابتدائية والاعدادية .  
 ويشكل ديوانا للمدارس يرأقها ويخطط لها ويرعى شؤونها  
 نم يرسل البعثات العلمية والعملية الى اوروبا لتنهض بامر  
 المدارس والمصانع ، ويأتي بالعلماء والمترجمين من كل مكان  
 وينشيء مطبعة تزود التلاميذ والاساتذة بالكتب التي  
 يحتاجونها ، كل هذا حدث في مصر في ثلث قرن ، فكانت  
 بذلك اول بلد عربي ، زود بوسائل النهضة الحقيقية ،  
 واصبحت منذ ذلك الحين اقوى مركز من مراكز الحضارة  
 الحديثة في العالم العربي .

وحيث كانت الحياة العربية في مصر آخذة في التطور  
 السريع ، بفضل هذه المعاهد العالمة ، كانت عيون اللبنانيين  
 ايضا تتفتح على آفاق جديدة من المعرفة ، انتهم من الخارج  
 تحملها البعثات الدينية التي اخذت تؤم لبنان في القرن  
 السابع عشر ، ولكن اثرها الحقيقي اخذ يتضح وياخذ طابعا  
 جديدا من القرن الماضي .

كانت اولي هذه البعثات ، البعثة الانجيلية المشيخية  
 « البريسبترية » التي اتخذت لها مركزا في بيروت سنة  
 ١٨٢٠ . وقد ابدى افراد هذه البعثة نشاطا ملحوظا في  
 التعليم ، فانشأوا عددا من المدارس بلغ عددها حوالي  
 ١٨٦٠ نحوا من ثلاث وثلاثين مدرسة . واعدوا لها المعلمين  
 الاكفاء ، وزودوها بالكتب النافعة التي وكالوا امر تأليفها الى  
 مشاهير ادباء العصر كالشيخ ناصيف اليازجي والمعلم  
 بطرس البستاني . ثم توجوا نشاطهم بتأسيس الكلية  
 السورية الانجيلية سنة ١٨٦٦ التي اصيحت تدعى فيما بعد  
 الجامعة الاميركية . وقد قامت هذه الجامعة بدور خطير في  
 نهضتنا الحديثة .

وكان الانجيليون واليسوعيون فرسي رهان في حلبة  
 السباق التعليمي . اذ ماكاد اليسوعيون يشعرون بوفود  
 الانجيليين على لبنان ، حتى عادوا اليه سنة ١٨٣١ ، بعد

ولغته وعاداته ، لن يثير في نفوس أبناء الشعب الريب والظنون كما ينتظر من الاجنبي ، واذا انتدب الى الخدمة العامة فلا بد من ان يخلص في العمل ، لانه انما يحدم اهله وبلاده . وكان للبنانيين في عهد محمد علي دور واضح في الطباعة والترجمة والصحافة .

اما في الطباعة فانا نخص بالذكر نقولا مسابكي الذي بعث به محمد علي الى هيلابو سنة ١٨١٥ ليتعلم فنون الطباعة . وقد مدت فيها اربع سنوات عاد بعدها الى مصر ومعه الآلات اللازمة ، وانشأ مطبعة بولاق التي كان لها اعظم الاثر في نشر الثقافة العلمية وفي بعث التراث العربي ، وظل مديرا لها حتى توفي شابا سنة ١٨٢٠ .

اما اسهام البنانيين في الترجمة فانه يعتبر اعظم اسهام لهم في هذا العصر . اذ كانت الكتب المترجمة هي عده محمد علي في نهضته العملية والعلمية . فننون الحرب والصناعة والضيافة والزراعة والتعدين تدرس في هذه الكتب اولاً ثم تخرج الى الحياة العملية لتطبق على ارض الكتابة . وتلاميذ المدارس العالية ، لا بد لهم من الاعتماد على العلوم المترجمة اذ كانت معرفتهم باللغات الاجنبية آتذاك ضئيلة بل اكاد اقول معدومة . وقد تنوعت موضوعات الترجمة بتنوع الخطوط التي كانت تسير عليها عجلة اليقظة ، وباختلاف الدروس التي كانت تعطى في المدارس العالية . على انها كانت جميعا تدور في فلك العلم ، نظرا وتطبيقا فتشمل الطب بفروعه والهندسة بانواعها والصناعة بمختلف فنونها . نذكر من هؤلاء المترجمين الاب انطون روفائيل ويوسف فرعون ، وقد فصلت المراجع المصرية الحديثة ، ككتب الدكتور الشيال والدكتور ابو الفتح رضوان والدكتور احمد عزت عبد الكريم الحديث عنهم ، ولا داعي هنا لتكرار ما قالوا . والظاهره التي تلفت نظر الباحث هنا ان المترجم اللبناني كان يجلس جنبا الى جنب مع العالم المصري ، الاول يترجم والثاني يصحح اللغة ويضعها في بيان عربي مفهوم مقبول ، لكي تصل الكتب الى ايدي المتفهمين بها خالصة من شوائب العجمة والغموض .

اما في الصحافة ، فان دور اللبناني في هذه الفترة لم يكن قويا بارزا ، كما كان في النصف الثاني من ذلك القرن ، ولكنني اود ان اشير الى جهود الكاتب اللبناني الكبير فارس الشدياق في تحرير الوقائع المصرية ١٨٢٨ - ١٨٢٤ وتلميذه علي رفاعه الطهطاوي والشيخ محمد شهاب الدين وهي الفترة التي كان لها اعظم الاثر في حياته ، اذ اتيح له ان يدرس اللغة العربية دراسة تعمق وشمول ، ليقوم في النصف الثاني من القرن الماضي بدوره الخطير في نهضتنا ، دور الكاتب المجدد والعالم اللغوي المدقق الذي استطالت قامته حتى بلغت قاموس الفيروزآبادي فكشفت عما فيه من عيوب وماخذ .

— ٤ —

واذا التفتنا الى لبنان في هذه الفترة وجدنا ان البعثات الدينية سائرة في سبيلها . وقد هيا لها حكم ابراهيم باشا للبلاد ( ١٨٢٢ - ١٨٤٠ ) بما اتسم به من تسامح ، ان تمضي في اداء مهمتها على اكمل وجه . وقد اشرنا سابقا الى انه كان لهذه البعثات الدور الاول في يقظة لبنان في القرن الماضي . وبذا يكون ابراهيم ، عاملا من العوامل التي شجعت على مضي اليقظة اللبنانية في سبيلها ، دون تلكؤ .

— التتمة على الصفحة ٦٦ —

صدر حديثا عن :

## دار الطلبة للطباعة والنشر

\*

### روابي افريقيا الخضراء

رائعة همغواي الوصفية - ترجمة يوسف الخطيب

القصة التي تجعلك تعيش اروع الحوادث مع همغواي في اطار طبيعي كله سحر وروعه ومفاجآت .

### ثورة افريقيا

تأليف مادهو بانبيكار الاخصائي العالمي الهندي  
في الشؤون الافريقية - ترجمة خيري حماد

دراسة شاملة للدول الافريقية الناهضة تحوي ادق التفاصيل عن الاحزاب والزعماء الافريقية .

### السلطان

تأليف برتراند راسل - ترجمة خيري حماد

اعمق دراسة عن فلسفة الحكم والسيطرة والنفوذ

### الجدور التاريخية للشعبوية

تأليف الدكتور عبد العزيز الدوري

تحليل واقعي لعناصر الشعبوية السياسية والاثنية والدينية والادبية .

### الخبز مع الكرامة

تأليف الدكتور يوسف عبدالله صائغ

تحليل علمي للمضمون الاقتصادي الاجتماعي للمفهوم القومي العربي

### الشيوعية

تأليف هارولد لاسكي - ترجمة خيري حماد

الكتاب الوحيد المحلل للشيوعية من وجهة نظر الاشتراكيين الديمقراطيين

## الصلات الثقافية

- تممة المنشور على الصفحة ٣ -

ونرى من ناحية أخرى ان هذه الحملة العسكرية ، قد فتحت نافذة جديدة من نوافذ التعاون الثقافي . فابراهيم يخصص عشرة قاعد في كلية الطب المصرية للسوريين ، فيأخذ هؤلاء الطلاب في التقاطر على مصر منذ وقت مبكر في القرن الماضي . فالدكتور ميخائيل مشاققة اشهر اطباء لبنان في القرن الماضي ، كان احد تلاميذ هذه المدرسه . وكذلك غالب البعلقيني وابراهيم النجار ويوسف الجلجج ويوسف مرهج . وقد ظل هذا التقليد متعاً حتى وقت متأخر من القرن الماضي ، ثم يستمر التحاق اللبنانيين ، بكلية الطب المصرية ، وبكليات الجامعات المصرية الأخرى حتى يومنا هذا . وعندما أسست جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية سنة ١٨٨٠ رأت من أول واجباتها ان ترسل بعثات للدراسة في مصر . فاختارت خمسة من شبان بيروت هم : كامل قريطم ، وعبد الرحمن الانسي وسليم سعد الدين سلام وحسن الاسير ومحمد سلطاني ، وهيأت لهم بالاتفاق مع الحكومة المصرية ، سبيل الالتحاق بكلية الطب المصرية ، بعد ان بعثها اسماعيل من جديد وادخل عليها التحسينات التي جعلها اداة نافعة في النهضة التي كان يسوق البلاد اليها . ونجد اخبار هؤلاء الطلاب مفصلة في سجلات ديوان المدارس في مصر ، وفي بعض الصحف اللبنانية ومن أهمها مجلة « الجنان » لسليم البستاني التي عنيت باخبارهم ونشر الشهادات التي حصلوا عليها . على ان اثنين من هؤلاء الاطباء ، قد سجلا تجربتهما في دراسة الطب بمصر ، احدهما الدكتور ابراهيم الديبراني ، او ابراهيم الطيب ، وقد تحدث عن دراسته واعماله في كتابه « مصباح الساري ونزهة القاري » ، والثاني هو الدكتور شاكر الخوري وقد اورد تفاصيل حياته الدراسية ، وعمله في المهنة في كتابه الطريف « مجموع المسرات » .

- ٥ -

هذا وجه من الصفحة او صفحة من الكتاب . وفي النصف الثاني من القرن الماضي كانت يقظة مصر ، التي تمت في عصر محمد علي ، تتحول الى نهضة . اذ عاد طلاب البعثات واخذوا يقومون بدورهم الثقافي المرتقب من تدريس وترجمة وتآليف ، كما كان خريجو المدارس العالية قد اخذوا يملأون الفراغ الذي كان ينتظرهم في الحياة المصرية ، وكانت الانظار آنذاك تتجه الى مصر ، مركز الثقل في المنطقة ، والاحاديث عن شق التربة التي ستؤكد مكانة مصر في العالم ، تتناقلها الالسن وتنشرها الصحف . واسماعيل ، ومن حوله مستشاروه من رجال البعثات وخريجي الكليات ، يرقبون هذه العقول الثيرة الشابة التي ارتوت من الثقافة الحديثة بمستوياتها العالية ، وتدفعه عجلة التطور وما كان يراه من تطلع هؤلاء الشبان وقلقهم وحرصهم على النهوض بمصر ، الى احياء مدارس محمد علي ، بعد ان توقفت او كادت في عهدي عباس وسعيد ( ١٨٤٩ - ١٨٦٣ ) وانشاء مدارس جديدة لم تكن غايتها عملية في المقام الاول كما كانت في عهد محمد علي ، واتجه ، بنصح من مستشاريه ، الى تنظيم المعارف فانشأ لها

« نظارة » عهد اليها تنظيم المدارس على نمط جديد . فانشأت المدارس الابتدائية والثانوية والعلية ، وكذلك اقامت الكليات الحديثة مما لم يكن لمصر به سابق عهد كمدرسه الادارة التي تحولت فيما بعد الى كلية حقوق ، ومدرسه دار العلوم ، ومدرسه الصنائع والفنون ببولاق ومدرسه المعلمين . وكان الفضل الاكبر في ذلك يعود الى علي مبارك الذي نفخ في النهضة التعليمية من روحه واقام في مصر مؤسستين من اعظم المؤسسات الباقية حتى اليوم تشهد بفضله وجهوده ، وهما كلية دار العلوم ودار الكتب المصرية ، ولا يسعنا هنا ان نغفل الدور الخطير الذي قام به رفاعة الطهطاوي ، حادي قافلة الثقافة في مصر منذ عاد من بعثته الى باريس سنة ١٨٣١ حتى توفي سنة ١٨٧٣ . فاليه يعزى الفضل كل الفضل في تنظيم حركة الترجمة والاشراف على تخريج المترجمين وترجمة الكتب ، والمدرسة الاولى من المترجمين ، وعلى رأسها محمد عثمان جلال ، هي غرس يديه وثمره جهوده . هذا الى ان كتبه الكثيرة التي ترجمها او الفها تشهد له بطول الباع وتنوع الثقافة والرؤيا الصافية والجهد المخلص في وضع الاسس المتينة للنهضة الفكرية في البلاد .

يتأثر اسماعيل بكل هذا وينساق به ، بل تدفعه آلة التطور دفعا فروعى هذه النهضة بما هيا له رخاء البلاد من مال ، وينفق على مصر بسخاء لكي يجعلها قطعة من أوروبا ، كما قال ، واول بلد ناهض في الشرق ، ويشجع الاجانب والجيران ، فتندفع قوافل المهاجرين من كل حذب وصوب .

اما في لبنان ، فقد كانت اليقظة تسير سيرها البطيء الواثق ، فالمدارس تخرج المتعلمين ، واللغات الاجنبية تغدو شائعة متداولة ، على ان البلاد ، بحكم الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تجتازها عقب فتنه الستين ، لم تعد قادرة على استيعاب هذا العدد العديد من المتعلمين ، كما ان الاحوال السياسي كانت تحول دون انطلاق هذه الاقلام الحرة الفتية الى شأوها اذن فلا بد من الهجرة . وصر على مرمى البصر . ومصر تنهض بعد ان مضى زمن صويل على استيقاظها . فهي اذن المكان الاول الذي يمكن ان يجتذب هؤلاء الشبان الذين يثقل العلم رؤوسهم ويملا الطموح جوانحهم وتتطلع انظارهم قلقمة متحفزة الى وضع علمها موضع التداول والاستعمال . ولم لا تتفتح هذه البراعم الفكرية الشابة في بلد عربي ، تهيأت له كل اسباب النهوض . وهل أسخى من وادي النيل ؟

هنا تبدأ الصلات الخيرة الايجابية تأخذ طريقها الى التشكل والتوثق : ولذا فان النصف الثاني من القرن الماضي يسجل حدثا ثقافيا وحضاريا خطيرا في حياتنا الحديثة . وذلك حين غرس المصري الذي علمته يقظة عصر محمد علي ونهضة عصر اسماعيل ، معنى الاكتفاء واللبناني الذي ورث في دمه الطموح وحب المغامرة ، وفتح عينه على العلم الغربي في مدارس البعثات الدينية ، حين غرس هذان الاخوان شجرة مباركة ترعرعت في السماء ومدت اغصانها فآظلت الشرق كله ، وطرحت ثمارها الناضجة التي دفعت في شرايين العرب ، حملة التراث العريق ، دما نقياً جديداً .

- ٦ -

تضخ ملامح هذا التعاون الوثيق في اتجاهات عدة ، ولكن أخطرها أثراً في حياتنا الحديثة ما يلي :

١ - الصحافة

٢ - المسرح - الهجرة الاولى للمواهب الفنية

٣ - القصة

٤ - الشعر

٥ - التأليف والترجمة

٦ - الفكر السياسي

ثم يمدح مصر وأهلها وينوه بالمشروعات الثقافية والعمرائية التي تحققت فيها ثم يقص علينا خبر مفاوضات لدرائيت بك مدير الاوبرا بشأن سفر فرقة العربية من لبنان الى مصر ، واقتناع هذا بما عرضه عليه سليم ، بعد ان قدم له من البراهين ما اقنعه . وقد هبطت هذه الفرقة مصر سنة ١٨٧٦ ، تضم بين اعضائها عدداً من المواهب الفنية وتحمل في جعبتها مسرحيات مارون النقاش الثلاث ومسرحيات اخرى اعدها سليم لتمثل في مصر ، منها اوبرا « عابدة » التي كان فردي قد لحنها لتمثل على مسرح الاوبرا قبل سنوات . ويستدعي سليم صديقه اديب اسحق ، الاديب المعروف ، ليعينه في ترجمة المسرحيات وتاليفها . ولكن سرعان ما يجتذب الصديقين النشاط الفكري الذي كان جمال الدين قطب دائرته ، فيترك ان الفرقة ليوسف خياط ، احد افرادها ، ويلتحقان بحركة البعث وبنضويان تحت لواء الشيخ ، ويصدران صحيفة « مصر » ، ثم « التجارة » بمساعدة جمال الدين الاديبية والمادية .

ويستمر يوسف خياط في العمل التمثيلي حتى سنة ١٨٩٥ . وينشق عنه سنة ١٨٨٢ احد افراد الفرقة الممثل الكبير سليمان القرداحي الذي اشتهر بتمثيل ادوار شكسبير فينشىء فرقة خاصة تقطع الطريق على عدد من الفرق ويظل في هذه المهنة حتى وفاته في سنة ١٩٠٩ .

وفي فرقة الخياط تلك ، ظهر الشيخ سلامة حجازي اول ما ظهر . وعلي القرداحي تتلمذ جورج ايض ، وعدد من المثاليين الذين كنا نسمع عنهم ونشهد تمثيلهم حتى وقت قريب .

والى جانب هذه الفرق ظهر عدد من المترجمين والمؤلفين كانوا يمدونها بنتاج اقلامهم ، ومنهم من تخصص او كاد بالمسرح ، كنجيب الحداد ومحمد عثمان جلال وابراهيم رمزي ، ومنهم من عالج المسرح الى جانب اعماله الادبية الاخرى كالياس فياض الشاعر وفرح انطون الاديب المفكر .

- ٩ -

وفي حقل القصة كان اللبنانيين من اعضاء المدرسة السورية المتمصرة نشاط واضح اصيل . فقصص زيدان كانت مدرسة تتلمذ عليها كتاب القصة التاريخية في العالم العربي ، وحدثت ضجة نقدية كبيرة ، وكذلك قصص فرح انطون الاجتماعية الفكرية ، وقصص سعيد البستاني ولبية هاشم ويعقوب صروف . وقد اصدر اللبنانيون المتمصرون عدداً من المجلات خصصت للقصة ، كما كانوا ينشرون في صحفهم القصص المترجمة والمؤلفة ، وقد بدأ هذا التقليد في وقت مبكر عقب ظهور تلك الصحف في مصر .

- ١٠ -

ونذكر من الشعراء اللبنانيين الذين مهدوا لحركة التجديد في مصر ، نجيب الحداد ، واديب اسحق ونقولا رزق الله وطانيوس عبده والياس فياض وأمين تقي الدين ثم شاعر القطرين خليل مطران . وقد تميز هؤلاء الشعراء ، منذ القرن الماضي برغبتهم الشديدة في التجديد وباطلاعهم على الادب الغربية وبعنايتهم بنقد الشعر . ولا ننسى ان

هذه المجالات من نشاط اللبنانيين ، او المدرسة السورية المتمصرة - كما اعتدنا ان ندعوها في كتب الادب - هي التي تعطينا في هذه المحاضرة ، حارفين النظر عن النشاط الاقتصادي للمهاجرين اللبنانيين ، والدور الاجتماعي والسياسي الذي نهضوا به في حياة وطنهم الثاني .

- ٧ -

ظهر نشاط اللبنانيين الصحفي في مصر ، في العقد الثامن من القرن الماضي بصحيفة كانت وما تزال من كبريات الصحف العربية ، ان لم نقل اكبرها . في سنة ١٨٧٦ اصدر سليم تقلا المعلم الاول للغة العربية في المدرسة البطريركية في بيروت وشقيقه بشارة المعلم في مدرسة عينطورا ، في الاسكندرية جريدة « الاهرام » . واتبعها بصدى الاهرام ( ١٨٧٧ ) ، ثم اصدر سليم النقاش وزميله اديب اسحق - اللذان ذهبا الى مصر على رأس فرقة تمثيلية - جريدة التجارة . وبعد ذلك توالى الجرائد اللبنانية المصرية فكان منها « الاتحاد المصري » و « مصر » و « الاحوال » و « لسان العرب » و « المشير » و « المقطم » وسواها . وقد بلغ عدد هذه الجرائد المئات ، وكان لها دور كبير في الحياة السياسية والاجتماعية وقد استحصدت على صفحاتها مواهب عدد كبير من الكتاب الصحفيين في مصر والشرق العربي .

الى جانب هذه الجرائد ظهرت المجلات ، وكانت بطبيعتها اكثر تنوعاً واعظم اثراً . فكان منها الدينية والتجارية والطبية والزراعية والعلمية والادبية والفكاهية المصورة . ولنذكر فقط أسماء بعض هذه المجلات ، التي نعرفها او نعرف اكثرها ، نذكر المقتطف والهلل والضياء والجماعة وفتاة الشرق فتعيد الى اذهاننا المنابع الثقافية الاولى التي استقينها منها . وكانت هذه الصحف والمجلات تعتمد على اقليم لبنانية ومصرية ، ويقراها المصري واللبناني بوجه خاص ، وتفيد منها الثقافة العربية الحديثة في كل قطر من اقطارها بوجه عام .

- ٨ -

وقد كانت الهجرة الاولى للمواهب الفنية اللبنانية في وقت مبكر من النصف الثاني من القرن الماضي . ففي سنة ١٨٧٥ ، وبعد ان عرفت مصر مسرح الاوبرا ومسرح الكوميدي والفرق الاجنبية وفرقة يعقوب صنوع ، نجد سليم النقاش ابن اخي مارون النقاش رائد المسرح العربي يداخله اليأس من امكان استمراره في عمله التمثيلي في بيروت فيم شطر مصر ويقول :

« ولما كانت وسائل بلادنا المادية قاصرة عن انجاح مطلبي ، طمحت افكاري الى معالجة مقصدي في غيرها . واذا كنت اسمع بما نال مصر من رفعة الشأن بين الامصار ، اذ فاقت ما سواها من الاقطار الشرقية في التهذيب والتمدن ، ونجحت نجاحاً عظيماً في المعارف والعلوم ، قصدتها » .

الشاعر المهجري الكبير ، ألياً أبو ماضي ، تتلمذ على شعراء مصر في مطلع حياته الادبية وكان للسنوات التي قضاها على أرض النيل أعظم الأثر في تهذيب شعره واستحصاد ملكته .

- ١١ -

ويتألق في حقل التأليف جرجي زيدان ، وكتبه النفيسة التي ما تزال مرجعا للعلماء والباحثين كتاريخ آداب اللغة العربية وتاريخ التمدن الاسلامي ، ونذكر يعقوب صروف بمقالاته وكتبه العلمية وشبلي الشميل اول مدافع عن نظريه النشوء والارتقاء وفرح انطون وكتبه الفلسفية والاجتماعية ، ونقولاً حداد وكتبه العلمية وابحاثه المبكرة عن الاشتراكية والعدالة الاجتماعية وسليمان البستاني مترجم الايلاذة . هذا غيض من فيض ، لا بد حين ذكره من ان نوه بفضل البيئة التي احتضنته وشجعت اصحابه واستقبلت آثارهم بالاعجاب والتقدير .

- ١٢ -

وهل هناك دليل اعظم من ان عددا من هؤلاء الكتاب انغمسوا في السياسة الوطنية المحلية ، فكان منهم من شرع قلمه لنشر مبادئ جمال الدين الاصلاحية ومحاربة النفوذ التركي والاحتلال الانجليزي . وما تزال كتابات اديب اسحق الثوريه مرجعا لكل من يدرس الفكر السياسي

المهد للثورة العربية ، وكذلك يعتبر كتاب سليم النقاش ، الذي عنونه بشعار العرابين « مصر للمصريين » باجزائه الستة المتبقية ، بعد ان حرقت الحكومة المصرية آنذاك اجزائه الاولى ، من احسن المراجع لدراسة الحركة العرابية وحكامات العرابيين .

- ١٣ -

وإذا التفتنا الى لبنان في ذلك الحين ، نجد ان الحياة الفكرية فيه ، لا تخلو من مشاركة الابداء المصريين ، ففي الجمعية العلمية السورية التي اعيد انشاؤها سنة ١٩٦٨ نرى عضوين من اعضائها ينتميان الى اسرة من اكبر الاسر المصرية ، وهما سليمان اباطه واحمد اباطه .

وعندما كانت تحتدم المناظرات الادبية واللغوية في لبنان ، كنا نرى ابداع مصر وعلماءها يشاركون فيها مؤيدين هذا او ذاك من المتناظرين ، وقد حدث هذا مرات كثيرة ، في مناظرة « الجواب » و« برجيس باريس » وفي مناظرة « غنية الطالب » بين الشرتوني والشدياق وفي مناظرة الفطحل بينه وبين اليازجي الابن .

وكذلك حين اصدر بطرس البستاني قاموسه « محيط المحيط » ومجلة « الجنان » و« دائرة معارفه » اسهم المصريون في تمويل هذه المشروعات اسهاما قويا اعترف به المعلم بطرس وابنه سليم ، وكان للاشتراكات المصرية اثر كبير في تحقيق هذه المشروعات الضخمة التي كان ينهض بها المعلم بطرس وابناؤه واصدقاؤه في الثلث الاخير من القرن الماضي .

والجوء محمد عبده واصدقائه ابراهيم اللقاني ومصطفى عبد الرحيم واحمد عبد الغفار وحسن جاد ومحمد الزمر الى لبنان ، بعد نفيهم من مصر سنة ١٨٨٢ ، دلالة كبيرة على الشعور الذي كانت تنطوي عليه نفوس المحررين من العرب آنذاك ، فقد كان العربي يؤثر ان ينقل نشاطه الى بلد عربي وان يلقي بذور فكره في تربة عربية صريحة ، لكي يضمن لها النمو والازدهار . وحسبنا لتبيين اثر الاستاذ الامام في الحلقات الفكرية في لبنان ، شهادة احد تلاميذه النجباء الامير شكيب ارسلان ، قال :

« وكانت فائدة مقام الشيخ في بيروت عظيمة لاهل سورية فانه ما مضت مدة الا وقد اصبح منزله بصورة دائمة تقريبا غاصا بالزائرين الذين كانوا يقصدون الى حضرته لمجرد الاستفادة من محاضراته والالتقاط من درره . وصار للناس ولوع به فكنت تراهم يحفظون من كلامه ويقلدونه في لفظه ويتابعونه في رايه . . . واجمع السوريون على اجلاله والولوع به اجماعا لم يقع مثله لاحد ، فكنت ترى جميع الفرق والنحل والطوائف بدون استثناء تزدهم حول ذلك المنهل العذب ، وكان هو بسعة عقله وعلو ادراكه واحاطة نظره يتفاهم مع كل قبيل منهم كأنه نشأ فيهم ولم يعرف سواهم » .

- ١٤ -

هذه امثلة قليلة عن مظاهر التعاون الفكري الوثيق بين مصر ولبنان في القرن الماضي . وقد كانت كلها امثلة عميقة الدلالة على ما سميت بالوحدة الثقافية العربية التي تمتد جذورها منذ اقدم العصور حتى اليوم . ولم تتوقف هذه الصلات في قرننا هذا - القرن العشرين - بل استمرت

## الادب الاميري في نصف قرن

صدر منها :

١- النفر اللؤلؤي

وليم فانت او كونيور - ترجمة : صدم احمد ابراهيم - ٣٥٠ ق.ل

٢- القصة القصيرة

ايدي بي. ويت - ترجمة : سميرة عزام - ٢٥٠ ق.ل

٣- الشعر

لويس بوجبات - ترجمة : سامي خضراء الجبوسي - ٣٠٠ ق.ل

٤- القصة الحديثة

فرديريك ج. هوفت - ترجمة : بكريه عباس - ٤٥٠ ق.ل

٥- النثر غير القصصي في امريكا

ماجي برودييك - جري ميتزجر - ترجمة : مردان الجابري (يظهر قريباً)

تطلب جميع هذه الكتب وسواها من المكتبة العربية من

دار الثقافة - بيروت - رياض الصالح - ص.ب ٥٤٣

تلغراف : ٢٣٠٥٦١ - ٢٤٥٠٥٨

ومن عموم المكتبات

مذكورة فحين ضرب الاسطول الايطالي بيروت سنة ١٩١١ قال شوقي احدى روائعه ونظم حافظ مسرحية شعريّة مثلت في الاوبرا . وهل ننسى ذكريات شوقي الحميمة في لبنان ووصفه لمعاهد جمالها وغزله بحورها وطيائها . وهل ننسى ما قاله في بكفيا وما خاطب به جارة الوادي على ضفاف البردوني . كان ذلك شعرا عربيا رائعا ، عبر عن ألم الشاعر العربي في مصر ، حين كان لبنان يتألم ، او صور فرحته الغامرة بقاء لبنان وائر الشم الرواسي في حسه وصدى الجداول والشلالات في اعماق نفسه .

- ١٩ -

ثم تحدث هجرة اخرى للمواهب ، فبينما كان ازدهار المسرح في مصر ، في القرن الماضي ، يعتذب المواهب اللبنانية الطامحة ، غدت السينما اليوم تحتذب هذه المواهب . فتلاقي على ارض الكنانة الترحيب والنجاح ، ويقابلها المصري في وطنه مقابلة الاخ المشوق للقاء اخيه . وتأتي بعد ذلك بعثات المدرسين التي تمد لبنان بنخبة من رجال التعليم من وطن الى وطن ، بل من مدينة في وطنهم الى مدينة اخرى ، ليفرسوا غراس النهضة العلمية ، وليرعوا ازدهارها وترعرعها ، بقلوب حانية مخلصه ، يعمرها الايمان بان العربي خادم في ارض وطنه ، اينما كان .

وجاءت الجامعة العربية اخيرا ، وادارتها الثقافية خاصة ، لا لتنشئ صلوات ثقافية جديدة ، بل لتكرس واقعا قائما تقادم العهد عليه ، وبلغ من العمر قرنا ونصف القرن او اكثر من ذلك .

- ٢٠ -

هذه سيداتي وسادتي ، عجالة عما تم في نهضتنا الحديثة من تعاون ثقافي وثيق بين بلدين عربيين ، قاما بعبء النهضة والتجديد في تاريخنا الحديث . وانهما لعمري امثولة جديرة بان تحتذى وان تكون دوما ضميرا آخر الى جانب ضميرنا لنجا اليه كلما هزت دوحتنا العربية ريح من الشرق او غربت بها عاصف من الغرب . فهذه الصفحات المشرقة حرة بان تطالع كل يوم لتكشف عن حقيقة النفس العربية ، حين تتاح لها الحرية والانطلاق في حقل الفكر ، فتتجاوز الحدود وتخرق الحجب فيشع نورها على اسمى صعيد ، صعيد العقل الانساني في تطلعه الحضاري .

اخشى ان اكون قد املت حين لجأت الى السرد والتعداد في عدد من المواقف . وعذري ان هذا الموضوع المتشعب لا تلم به محاضرة ، وان مثل هذه الصلوات العديدة المتنوعة جديرة بسفر جليل لا بدقائق معدودات .

\* \*

وبعد ، فليست ، سيداتي سادتي ، هذه الجاهمة الفتية التي اتشرف بمخاطبتكم من على منبرها ، الا رمزا كبيرا حديثا يلخص لنا هذا التاريخ الثقافي الحافل بالامجاد في ثلاث كلمات . وهي وان كانت المظهر الاخير من مظاهر هذا التعاون ، فان تكون آخر هذه المظاهر باذن الله . \*

الدكتور محمد يوسف نجم

\* نصر محاضرة القيت في جامعة بيروت العربية

على قوتها وان كانت قد تلونت بألوان جديدة نظرا لاختلاف طبيعة العصر . فقد كان القرن الماضي قرن اعداد وتمهيد ، قرن بقطة لا بد من حدوثها قبل ظهور عصر النهضة . اما في هذا القرن فقد استوت النهضة على قدميها بفضل هذه الجهود المتعاونة الضخمة ، وظهر التعاون الثقافي في حلة قشبية ، وتجلى في حقلي الابداع والاصالة ، بينما كان يتجلى في القرن الماضي في حقلي النقل والتقليد .

- ١٥ -

منذ مطلع هذا القرن استوت للبنانيين في المهجر الامريكي نهضة ادبية مرموقة ، كان على رأسها الكاتب الكبير جبران خليل جبران ومن حوله كوكبة من الابداء والشعراء يهتدون بهديه وتعشو ابصارهم الى نفثات قلمه . ويخبرنا تاريخ الادب الحديث ان ادب جبران وقع في نفوس عدد من ابداء مصر احسن موقع فتأثروا به وتأثروه . فالمنفلوطي تأثر بالكتاب اللبنانيين المتمصرين وعرف عن طريق فرح انطون ومحلته « الجامعة » روسو وهيجو وفولتير وسواهم كما تأثر بجبران ، وبعاطفيته المشرقة ، وكان يرسل بآثاره الادبية الى المهجرين في امريكا لكي يروا رأيهم فيها . وقد كان المنفلوطي برا باصدقائه واساتذته هؤلاء ، اذ وقف يدافع عنهم حين اخذت الاقلام تنال منهم بسبب الموقف السياسي الشاذ الذي وقفته قلة منهم في مناصرة الاحتلال . ويعترف محمود تيمور بانه بدأ يعالج الكتابة الادبية على صفحات السفور متأثرا باسلوب جبران . وكذلك ترى اثر اسلوب جبران والمهجرين عامة واضحا في كتابات حسين عفيف الذي ما يزال يكتب حتى الان ، وآخر كتاب صدر له هو « الارغن » .

- ١٦ -

وبعد الثورة القومية المصرية ١٩١٩ ، والانتداب الفرنسي على لبنان ، ظهرت المجالات الادبية الحديثة في كلا البلدين ، وكانت الحركات الادبية التجديدية في كل منهما تلاقية صدى قويا في البلد الاخر ، فالسياسة الاسبوعية وكوكب الشرق والرسالة والثقافة والكاتب والكتاب في مصر ، كان يقابلها المعرض والجمهور والمكشوف والاديب والاداب في لبنان . واخذ الابداء اللبنانيون ينشرون آثارهم في مصر ، وكذلك فعل المصريون . وكان النقد الادبي هنا وهناك يتناول آثار ابداء البلدين ، بالنقد والتقييم وكانها تصدر عن بيئة واحدة .

- ١٧ -

وكانت المهرجانات الادبية والمؤتمرات العلمية والمناسبات الوطنية ، فرسا تتجلى فيها صورة التعاون الوثيق بين البلدين - فما من حدث ادبي ، او وطني يقع هنا او هناك الا وتجد صداه في صحافة البلدين وفي اندبيتهما الادبية وفي شعر الشعراء ومقالات الناشرين . فوفاة الاستاذ الامام ومصطفى كامل وسعد وشوقي وحافظ بعثت في الشرق كله احزانا واقامت آثم ، شارك اللبناني اخاه المصري فيها . ومهرجان شوقي ومهرجان الخليل كذلك كانا مناسبتين عربييتين قيل فيهما شعر كثير وخبرت مقالات عديدة .

- ١٨ -

وقد كانت لشعراء مصر ايضا في احداث لبنان مواقف